

أعمال الاستعمار

الكاتب: منفذ السقار



وخلال تاريخ الحركة الاستعمارية الغربية للعالم الإسلامي وبقية المستعمرات أظهر المستعمر الغربي صوراً قاتمة كالحالة ملؤها الظلم والقهر والاستغلال. فعلى الصعيد الإنساني ارتكب المستعمرون مجازر بحق الشعوب التي قامت تدافعاً عن دينها وخيراتها، فقد بلغت أعداد قتلى المسلمين في الهند حتى عام 1880م مليون مسلم سقطوا على يد الإنجليز، ومثله كانت الجزائر بلد المليون شهيد.

وكان البرتغاليون قد أحدثوا مجازر عند سيطرتهم على الشواطئ الهندية، ويسجل القائد البرتغالي البوكيير بفخر ببعضًا منه وهو يخاطب ملك البرتغال مهنئاً إياه بالسيطرة على مقاطعة جوا الهندية فيقول: " وبعد ذلك أحرقت المدينة، وأعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أيامًا عدة.... وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفساً، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيماً رائعاً أجدنا بدايته وأحسنا نهايته ". وفي مدغشقر قتلت القوات الفرنسية ثمانين ألف في ضربة واحدة للثائرين من سكان الجزيرة، فيما أعمل الإنجليز القتل في قبائل ماو ماو الأفريقية، ثم ادعوا أن وحوشاً مفترسة ظهرت في المنطقة وتخطفت الآلاف إلى مصارعهم.

نموذج الجزائر

وفي الجزائر يقول الجنرال الفرنسي شان: " إن رجاله وجدوا التسلية في جز رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة في بلدتي الحواش وبورقيبه ". ويخطط الماريشال سانت أرنو إلى زوجته بعض ما صنعه وجنوده في الجزائر فيقول: " إن بلادبني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا، فقرأها متقاربة، وأهلها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شيء، ودمروا كل شيء... .

أكتب إليك يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد تركتني عند قبيلة البزار فأحرقتهم جميعاً، ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع".

ويقول مونتياك في كتابه "رسائل جندي" وهو يصف إحدى المذابح التي حضرها: "لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والأفنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان، وقد أحصينا في جو هادئ بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والأطفال ألفيناهم ألفين وثلاثمائة، وأما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب هو أننا لم نترك جراحهم على قيد الحياة".

وقد بلغ عدد القتلى في مدينة سطيف في مايو 1945 ما يقرب الأربعين ألفاً. ويشنع الكونت هيربيسيون على هذه القبائح التي لا مبرر لها فيقول: "فظائع لا مثيل لها، أوامر الشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلدون قلوبهم كالحجر... فيناس مساكين جل ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه". وقد تفنن المستعمرون في طرق إبادة هذه الشعوب، ومما أبدعوه في هذا الباب طريقة يسمونها "جهنم" حيث يتبع الجنود الهاريين من النساء والأطفال والرجال إلى الكهوف فيشعرون عند باب الكهف ناراً عظيمة، فيموت من بداخله حرقاً أو خنقاً". (1)

جنوب إفريقيا

وفي جنوب إفريقيا سيطر الاستعمار ففرض القوانين الجائرة والضرائب، ومنح البيض في عام 1913 88% من أراضي جنوب إفريقيا وفرض على السود دون البيض مصروفات الدراسة، وأمر بأن يدفع كل أسود بين سنة 12 - 65 سنة ضريبة عن نفسه وأخرى عن كوهه. وقد أضر المستعمرون بمصالح المزارعين حين أمرتهم بزراعة بعض المحاصيل دون بعض، ثم شروها منهم بأبخس الأثمان. وفي عام 1951 باع فلاحو الجزائر قنطار الزيتون بـ 2000 فرنك في حين كانوا يبيعونه قبل دخول فرنسا بـ 5000 فرنك فرنسي.

وأجبر الفرنسيون السكان في أفريقيا الاستوائية على زراعة القطن عام 1955م، ثم باعوه لأربع شركات استعمارية بما ثمنه 72 - 60 فرنكًا للкиلو، فيما باعه المستعمرون بسعر 245 - 285 فرنكًا في مرفأ التصدير. وقد كان كيلو القطن المستورد في فرنسا يماثل - في مراكش - أربعة مرات كيلو القطن المصدر، وذلك في عام 1938م، ثم ارتفع إلى ست مرات في عام 1949م ومثله يقال في القطن التونسي. وفي نيجيريا يباع الخشب أكثر من سعره بـ 30 - 40 %، وباختلاف بلجيكا كيلو زيت النخل في مستعمراتها بـ 110 فرنكًا بدلًا من 75 فرنكًا. (2)

حال البلد المستعمرة

وتعترف إحدى مجلات الاستعمار بهذا الاستغلال فتقول: "المستهلكون في البلاد المستعمرة كانوا يتلقون عام 1953 ما يبلغ 80 % من مستورداتهم بأسعار أكثر ارتفاعًا بـ 20 - 50 % وأحياناً أكثر أيضًا من الأسعار التي كانوا يحصلون عليها لو أتيح لهم أن يستوردوا بضائعهم من بلد آخر غير فرنسا. (3) وفي مظهر آخر للاستعمار وظف المستعمر أبناء جلدته في مؤسسات الدول المستعمرة، وأبعد أهل البلاد الأصليين، ومن ذلك أن فرنسا وظفت في الجزائر في الدوائر العقارية 200 موظف منهم ثمانية فقط من الجزائريين، فيما لم يبلغ عدد المغاربة في وزارة الشئون الإجتماعية في المغرب سوى أربعة من الحجاج فيما قارب الفرنسيون المائتين والخمسين. (4) وأجبر السكان الأصليون تحت مظلة المستعمر على العمل بأبخس الأجور، ففي حين كانت الأسعار في الجزائر مقاربة للأسعار في فرنسا كان العامل الجزائري يحصل على 40 - 70 فرنكًا لقاء عمله اليومي، في حين أن العامل الفرنسي يحصل على أكثر من ضعف المبلغ في فرنسا، وقد كان سعر كيلو الخبز يومذاك في الجزائر 48 فرنكًا وكيلو السكر 94، واللبن 25 فرنكًا فيما كان اللحم الرديء يباع الكيلو منه بـ 400 - 500 فرنك فرنسي.

وكتب النائب الأسقفي في داكار عاصمة السنغال يشكو الظلم الذي يقع على

العمال الذين يسمى بهم بالمؤقتين والذين يحصلون على أجر شهري يتراوح بين 800 - 1200 فرنكًا في حين أن أحرق كوخ كان يؤجر بـ 3500 فرنك شهريًا إضافة إلى ما يدفعه من ضرائب تصل إلى 1800 فرنك سنويًا.⁽⁵⁾ وقد كان العمال في صفاقص من عمال شركة الفوسفات الفرنسية يسكنون بمعدل 10 عمال في كل كوخ، فيما تحدثت الصحف الفرنسية عن مدينة التنك (مراكش) حيث يسكن 200000 من العمال وعوائلهم في بيوت أو أكواخ من التنك أو الخشب الذي يلقطونه من مخلفات الشحن، وقد تحدثت إحدى الصحف الفرنسية عن القسوة البالغة التي يعيشها العمال المغاربة وعائلاتهم في هذه البيوت من غير توفر أي إجراءات تضمن صحتهم وسلامتهم.⁽⁶⁾ ونتيجة لضعف رواتب العمال في مراكش وانتشار الفقر بأبعش صوره كتب أحد أطباء وادي الداد في جنوب مراكش: "إن الأطفال في هذه البلاد يأكلون التراب. لماذا؟ ذلك من الفقر أو الجوع أم أنها عادة مجهلة المنشأ؟ لا أستطيع أن أقول شيئاً، ولكن هذا الواقع ماثل هنا. إن الأطفال يأكلون التراب ويصابون بالأمراض الخطيرة: فقر الدم وتضخم الطحال....".⁽⁷⁾

وقد اقتصر غذاء الأسرة المراكشية في الغالب على عدة أقراص من الشوفان، فيما ذكرت إحصائيات فرنسية في عام 1945 أنه "من أصل المليون والثلاثمائة عائلة جزائرية تعيش من الزراعة وتربية الماشي ثمة 800 ألف إلى مليون يجب أن تعتبر عائلات محتاجة ومعوزة".⁽⁸⁾ وأما المشاريع التي أقامها الاستعمار في البلاد المستعمرة فإنما أقامها لحماية مصالحه فالجهود المبذولة للكهرباء المراكز الثانوية والريفية يجب أن يكون مفهوماً أن التجهيزات المنتظرة إنما يجب أن تقتصر فقط على المشروعات ذات الدخل المضمون.

برنامج النقليات

أما برنامج النقليات فعليه أن يقتصر في الدرجة الأولى على إنشاء وسائل النقل وطرق المواصلات المرتبطة مباشرة بأهداف الانتاج المعينة في المشروع

والتي تؤلف على كل حال أحد العوامل الجوهرية لنجاحه". (9) ورغم الاستغلال الواسع للموارد الطبيعية والقوى البشرية فإن المستعمر لم يقدم أبسط الخدمات الإنسانية وهي الصحة والتعليم ففي الجزائر التي اعتبرتها فرنسا جزءاً منها لم يستطع سوى 12% من أطفال الجزائر ممارسة عملية التعلم، وانخفضت النسبة في مراكش إلى 10%， وفي أفريقيا الغربية إلى 7.6%， وفي تشاد إلى 4.7%， فيما ارتفعت في أفريقيا السوداء إلى 18% من أطفال تلك البلاد.

التعليم والصحة

ويخلص هنري كلود إلى أن نسبة التعليم في المستعمرات الفرنسية جملة لا يتجاوز 9% من أطفال المستعمرات الفرنسية. (10) وأما الخدمات الصحية فجرى تأمينها في المناطق التي ينتشر فيها الفرنسيون فيما كان لكل 10000 جزائري طبيب واحد، وتصل هذه النسبة في الأقاليم الجنوبية للجزائر إلى 1/30000، وفي مراكش 1/45000 فيما لكل 50000 شخص في غينيا طبيب واحد. ونتيجة لذلك ارتفعت نسبة الوفيات بين الأطفال في المستعمرات عنها في البلاد المستعمرة أو بين المستعمرين، ففي حين يموت من الأطفال الأوربيين في الجزائر ما نسبته 5.4% يموت من أطفال الجزائر 18%， وفي تونس يموت للأوربيين من أطفالهم ما نسبته 5.9% فيما يموت للتونسيين ما نسبته 19.3% فيما تصل النسبة في بعض مناطق أفريقيا الريفية إلى 60%， وكتب الدكتور بريسو مقرر ميزانية الصحة عام 1954 في الجزائر أن من بين 120 مريضاً يراجعون عيادة السل في مستشفى مدينة الجزائر لا يلقى العناية منهم سوى 30. أما الباقيون فأسلموا إلى الموت. (11) ونبه أخيراً إلى أن كل ما سمعناه عن الاستعمار الفرنسي مما سطره لنا هنري كلود ورفاقه ينطبق تماماً على الاستعمار البريطاني والإيطالي والبرتغالي وسوى ذلك من جنسيات الاستعمار الأخرى.

المصدر:

منقد السقار، الاستعمار في العصر الحديث ودوابعه الدينية، ص 10

المراجع:

١. انظر هذه الفظائع وغيرها: أجنة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص (175)، الاستعمار. أحقاد وأطماء، محمد الغزالى، ص (34، 46 - 49، 56، 302).
٢. انظر: الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، هنري كلود، آخرون، ص (34، 135 - 138).
٣. انظر المصدر السابق، ص (17 - 19).
٤. انظر: التبشير والاستشراق، محمد عزت الطهطاوى، ص (90).
٥. انظر: الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، هنري كلود، آخرون، ص (39 - 45).
٦. انظر: المصدر السابق، ص (24).
٧. انظر: المصدر السابق، ص (51).
٨. انظر: المصدر السابق، ص (41، 49).
٩. انظر: المصدر السابق، ص (7 - 8).
١٠. انظر: المصدر السابق، ص (20 - 21).
١١. انظر: المصدر السابق، ص (22 - 23).

الكلمات المفتاحية:

#الاستعمار

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.

https://murabet.com